مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 22، العدد 86 (ربيع 2011)، ص 184

مؤسسة الدراسات الفلسطينية
Institute for Palestine Studies
www.palestine-studies.org

الدراسات العلمية الغربية

وتاريخ فلسطين[1]

Western Scholarship and the History of Palestine

Michael Prior, ed.

London: Melisende, 1998. 111 pages.

أسوة بمقالة بشارة دوماني بعنوان "إعادة اكتشاف فلسطين في العهد العثماني: كتابة تاريخ الفلسطينيين" ("Rediscovering Ottoman Palestine: Writing Palestinians into History," in *Journal of Palestine Studies*, Vol. XXI, No.2, Winter 1992, pp. 5 – 28)، تهدف هذه المجموعة من المقالات إلى إعادة إدخال الفلسطينيين، وفي الحقيقة الصفة الفلسطينية، في تاريخ فلسطين. وتقدم هذه المقالات، في مجموعها، توضيحاً كافياً لغياب الفلسطينيين حتى الآن عن التأريخ الغربي لأرض فلسطين، وهي تلقي اللوم على الدراسات التوراتية في هذا الشأن عامة.

والمقالة الافتتاحية في هذا الكتاب، تأليف كيث وايتلام (Keith Whitelam)، تبيّن كيف أن سيطرة إسرائيل التوراتية على الدراسات الأوروبية في عهد الاستعمار والإمبريالية تركت تاريخ العرب والمسلمين خارج إطار الكتابة التاريخية الاحترافية، ومهدت الطريق، في الوقت نفسه، لفرض الرواية الصهيونية بشأن تلك الأرض بالكلمة

[1] المصدر: *Journal of Palestine Studies*, Vol. XXIX, No. 2, Winter 2000, pp. 102-103.

والسيف. وهكذا، فإن الرواية المتمركزة أوروبياً، شأن الرواية المتمركزة مسيحياً، دعمت الرواية الصهيونية. وأفضل مثل لذلك هو أحد الادعاءات الصهيونية الأساسية الذي يقول بعودة أمّة لا إلى وطن قومي لها فحسب، بل أيضاً إلى حيّز كانت تشغله سابقاً دولة لأمة يهودية. ويمكن العثور على هذه الخرافة في المناقشات اللاهوتية في القرن التاسع عشر بشأن إسرائيل التوراتية، حيث أعيد إنشاء مملكة داود كدولة لأمة يهودية، وهي بدعة تبنّتها الحركة الصهيونية بسرور فيما بعد.

وهذه المجموعة من المقالات مشروع توضيحي بطبيعتها. ولذا فإنها أكثر إقناعاً لنا بكيفية فرض الحركات السياسية الحديثة، كالصهيونية، للأيديولوجيا على الماضي، لكنها أقل إقناعاً بالكشف عن حقيقة ما حدث. ولهذا، لا يمكن للمرء إلاّ أن يتفق مع توماس تومسون (Thomas Thompson)، المساهم الثاني في هذه المجموعة، على أن أية محاولة علمانية (أي قومية)، من وجهة النظر التوراتية (أي وجهة النظر اللاهوتية)، لاستعادة الماضي، أو لإضفاء صفة القومية عليه حاضراً، هي محاولة مضللة. فهل هناك رواية حقيقية يمكن الأخذ بها حين يتعلق الأمر بماض بعيد كهذا؟ إن الدين يتعامل مع المعتقدات، لا مع الحقائق العلمية. ولذا فإنه يصبح أكثر ارتياحاً في غياب الأدلة العلمية على إدانته. وفي ظل النزعة القومية، تستمر الحركة الصهيونية بحماسة شديدة، كما تستمر الحركة الوطنية الفلسطينية بمستوى أدنى كثيراً، في إضفاء صفة القومية على الماضي: فأناس الماضي رحلوا، ولذا ليس في استطاعتهم مقاومة هذه النزعة القومية؛ وهذا ما يفسر نجاحها إلى هذا الحد.

ولطالما كان هناك فارق بين هاتين الحركتين فيما يتصل بالنزعة القومية. فتبنّي الصهيونية للرواية التوراتية هو إضفاء لصفة القومية على الأرض، لا على الشعب. ففي الحقيقة، أقصي شعب فلسطين من الرواية الصهيونية المتصلة بالأرض منذ

سنة 1882، أي قبل اقتلاعهم بالقوة منها سنة 1948 بزمن بعيد. أمّا الفلسطينيون، من جهتهم، فقد أضفوا الصفة القومية على كل شخص على الأرض، حتى طردهم منها سنة 1948. وبعبارة أُخرى، فإن الرواية التوراتية أوجدت ضحايا حقيقيين. هم الشعب الفلسطيني الذي لم ينطبق عليه تعريف شعب إسرائيل بحسب الرواية الصهيونية/التوراتية. ومع أن الرواية الفلسطينية بقيت تناقش، حتى وقت متأخر، التاريخ الذي يمكن فيه اعتبار المهاجرين إلى البلد مواطنين شرعيين، سواء أكان ذلك سنة 1917، أو سنة 1948 أو سواهما، فإن هذه الرواية تعتبر السكان في فلسطين جميعهم مواطنين فلسطينيين.

ليست قيمة هذا الكتاب في كونه يبيّن، أول مرة، دور الرواية التاريخية في إنتاج المأساة البشرية، وإنما في كونه يفعل ذلك بصورة شفّافة جداً، وخالية من الرطانة الحداثية. والجديد في هذا الكتاب هو تحديده لمساهمة الرواية التوراتية في تلك المأساة. وقد بدأت مع التأسيس اللاهوتي لأسطورة "شعب إسرائيل". وكان الدارسون التوراتيون عرضوا هذا المصطلح في القرن الماضي كحقيقة تاريخية ـ وفي الواقع، كمصطلح وحيد ملائم للتعريف بالسكان المقيمين بفلسطين منذ مطلع العصر البرونزي فصاعداً، على الرغم مما يبدو من ضآلة القواسم المشتركة بين القرى المتباعدة في فلسطين تلك.

إن إبتداع الشعب اليهودي على أنه شعب إسرائيل القديم هو نتيجة مهمة لذلك الجهد الدراسي. وقد أدى ذلك دوراً مهماً في تشكيل أسس الأسطورة الصهيونية: شعب بلا أرض يعود إلى أرض بلا شعب. إن إقصاء الفلسطينيين عن تلك الأرض كان أمراً مختلفاً عن الزعم أنه كان لتلك الأرض شعب أصلي تائه. لكن الأمرين مترابطان. فهناك أمّة حقيقية عادت إلى وطنها، ومجموعة غير محددة من الناس ينبغي لها أن تنتقل، ثم تخرج لاحقاً، كي تفسح المجال لهذه العدالة التاريخية. وكما يبيّن توماس تومسون في

مقالته، فإنه ندر أن جرى تحدي أسطورة وجود أمّة تائهة بطريقة علمية. وهو يزعم أنه بعد الثورة اليهودية الكبرى ضد الرومان سنة 70 ميلادية، بقي الناس، في معظمهم، حيث هم. ولم تتوقف الأمور عند هذا الحد، بل جرى مع الوقت تنصيرهم تقريباً أيام كانت الإمبراطورية كلها "معمّدة"، كما أُدخل جزء منهم في الإسلام مع وصول الفاتحين العرب. هؤلاء هم سكان فلسطين الأصليون، الذين كانوا، في معظمهم، يهوداً في وقت من الأوقات، ثم أصبحوا، في أغلبيتهم، مسيحيين، وفي النهاية صاروا، في معظمهم، مسلمين. إنهم سكان خضعوا لتحوّلات دينية طوال ألفي عام، شأن معظم السكان في المنطقة؛ وهذا فصل من التاريخ انتهى بإعادة تعريف هذه الجوالي باعتبارها حركات قومية.

وتتناول مساهمة المحرر الجزء الأكثر قساوة من هذه الحكاية. فإلقاء اللوم على الصهيونية بسبب تبنّيها رواية توراتية لدعم أهدافها المعاصرة هو شيء، والتنديد بها بسبب بقائها وفية للمبادئ الخلقية المؤدية إلى المعاملة التوراتية للأرض والناس هو شيء آخر. والبحث الذي أجراه بريور بحث خلقي يبيّن كيف "يمكن للتوراة أن تكون صكاً لنزع الملكية، لا للتحرير فحسب" (ص 53). ويتساءل المرء كيف يمكن لهذه القراءة المشوّهة الخاصة للتوارة أن تكون ملائمة للنزعة الاستعمارية للصهيونية المبكرة، بما تنطوي عليه من حماسة ورؤية علمانية. ولا شك لديّ في أن هذه هي القراءة الرئيسية للنص التوراتي لدى الكثيرين من اليهود في إسرائيل، الذين قد لا يكونون جميعهم بالضرورة متطرفين أو أصوليين.

إيلان بابِه

أستاذ العلوم السياسية

في جامعة حيفا